

التعريب قاطرة الأمة للنهوض

بقلم الأستاذ الدكتور محمود السيد

الكلمة التي ألقى في الندوة التي أقامها المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر في المركز الثقافي بكفر
سوسة بتاريخ 2010/7/25 وذلك بمناسبة الذكرى الأربعين لتأسيس المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

أيتها الأخوات، أيها الأخوة:

لابد لي في البداية من توجيه الشكر للمركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر
ولمديره الأستاذ الدكتور زيد العساف على دعوته الكريمة لإقامة هذه الندوة بمناسبة الذكرى
الأربعين لتأسيس المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عام 1970، كما نقدم التهئة للسيد
الرئيس بشار الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية بمناسبة الذكرى العاشرة لتسلمه قيادة
الوطن، وقد تزامنت هذه الذكرى مع ذكرى تأسيس المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.
وتجدر الإشارة إلى أن هذه المنظمة قد عملت على توحيد الفكر بين أبناء الأمة العربية
الواحدة بطريق التربية والثقافة والعلوم كما نص على ذلك دستورها، وقد أنجزت خلال العقود
الأربعة الماضية عدداً كبيراً من المشروعات التربوية والثقافية والعلمية مثل استراتيجية تطوير
التربية العربية، ومراجعة استراتيجية تطوير التربية العربية، والخطة الشاملة للثقافة العربية،
واستراتيجية تعليم الكبار ومحو الأمية، واستراتيجية الطفولة المبكرة، واستراتيجية العلوم
والتقانة.

كما أنجزت موسوعة الفكر التربوي العربي الإسلامي، والكتب المرجعية مثل الكتاب
المرجع في الرياضيات، والكتاب المرجع في الفيزياء، والكتاب المرجع في العلوم الطبيعية،
والكتاب المرجع في البيئة، والكتاب المرجع في قواعد اللغة العربية، والكتاب المرجع في تاريخ
الأمة العربية، والكتاب المرجع في جغرافية الوطن العربي... الخ.

وأنجزت أيضاً الرصيد اللغوي للطفل العربي، وكتب اللغة العربية في الحلقة الأولى من
مرحلة التعليم الأساسي، بالإضافة إلى عدد من الدراسات التي تناولت تطوير تعليم اللغة
العربية في الأدب والقواعد النحوية والإملاء والقراءة... الخ.

وعقدت المنظمة مئات الندوات وورشات العمل على نطاق الساحة القومية، بالإضافة
إلى تعليم اللغة العربية لغير أبنائها ونشر الثقافة العربية في الخارج.

ولسنا الآن في مجال حصر ما أنجزته المنظمة، وإنما هذا غيض من فيض، وسنقف على موضوع التعريب على أنه قاطرة الأمة للنهوض وهو عنوان ندوتنا، نتعرف أولاً مفهوم التعريب لغة واصطلاحاً، ونبين أبعاده في عملية التنمية، ومن ثم نذكر بعض الصوى للنهوض به.

التعريب لغةً

جاء في لسان العرب أن الإعراب والتعريب معناهما واحد وهو الإبانة، يقال: أعرب عنه لسانه وعرب أي أبان وأفصح، وعرب عن الرجل أي تكلم بحجته، وعرب منطقته أي هدّبه من اللحن، ويقال: عربت له الكلام تعريباً إذا بينته له، وعربه أي علّمه العربية، وتعريب الاسم الأعجمي أي أن تنفوه به العرب على منهاجها، وعرب لسانه بالضم عروبةً أي صار عربياً.

والتعريب اصطلاحاً

هو إيجاد مقابلات عربية للألفاظ الأجنبية لتعميم اللغة العربية واستخدامها في ميادين المعرفة البشرية كلها.

وتوسعت دائرة التعريب لتشمل استعمال اللغة العربية لغة قومية في الوطن العربي للتعبير عن المفاهيم واستخدام هذه اللغة في التعليم بجميع مراحلها والبحث العلمي بمختلف فروعها وتخصصاته، واستخدامها لغة عمل في مؤسسات المجتمع العربي ومرافقه كافة.

ولقد آمنت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أن التعريب لا يقتصر على إيجاد مقابلات عربية للألفاظ الأجنبية لتعليم اللغة العربية واستخدامها في ميادين المعرفة البشرية كلها.

ولا يقتصر التعريب على الترجمة، وإنما يعني شمولية استعمال اللغة العربية في الوطن العربي في جميع مجالات الحياة تعليماً وإعلاماً واقتصاداً وتجارة وإدارة... الخ.

إنه يعني سيادة اللغة العربية على ساحة الوطن العربي بما يوحد المشاعر العربية ويجمعها حول تاريخها وتراثها وواقعها ومصيرها، مما يجعل التعريب عاملاً جوهرياً وأساسياً في الخروج من دائرة التخلف السياسي المتمثل في التجزئة إلى حرية الوحدة العربية في الصورة التي تؤصل دور الأمة العربية التاريخي والمصيري.

وبهذا المعنى يعطي التعريب الوحدة العربية مضمونها الحضاري المعاصر، ويعينها على كسر طوق التخلف والتحرر من أنواع التبعية الاقتصادية والتقانية والثقافية. وفي ضوء ذلك

يكون للتعريب هدفان كما أشار إليهما الأستاذ الدكتور محي الدين صابر رحمه الله وهو المدير الأسبق للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. وهذان الهدفان هما:

1- خلق شخصية إبداعية عربية تمتلك القدرة الذاتية على إنتاج العلم وصناعة التقانة «التكنولوجيا».

2- القدرة على المشاركة والتفاعل من منطلق متميز.

وبهذا التوجه يغدو التعريب قاطرة الأمة للنهوض.

- فالتعريب ليس قضية لغوية فقط، وإنما هو قضية سياسية تفرض تحدياً قوياً على الأمة العربية، وخياراً بين البقاء في حال من التبعية أو النهوض بالحضارة العلمية العربية من جديد لتمكين الأمة العربية من مواجهة التحديات في هذا العصر ولاسيما التحديات العلمية والتقانية، ذلك لأن التعريب يجب أن يؤدي إلى توطين العلم وتعريب الفكر والذهنية تفتيحاً للمواهب، ومساعدة على الابتكار.

والسؤال: لماذا الإصرار على استعمال اللغة الأم في نهضة الأمة؟

- ذلك لأن اللغة الأم هي الوطن فيها هو ذا الفيلسوف الفرنسي باسكال يقول: «إن وطني هو اللغة الفرنسية»، وكان ديغول معجباً بهذا القول، ويرى فيه أمانة على الانتماء وعلى الشخصية الفرنسية والهوية.

- وها هو ذا «هيدجر» الألماني يقول: «إن لغتي هي مسكني وهي موطني ومستقري، وهي حدود عالمي الحميم ومعالمه وتضاريسه، ومن نوافذها وبعيونها أنظر إلى بقية أرجاء الكون الفسيح».

- وها هو ذا شاعر إسبانيا الصقلي «أخباز يوبوتنيا» يقول: «إن الشعوب يمكن أن تكبل بالسلاسل، وتسد أفواهها، وتشرد من بيوتها، وتظل مع ذلك غنية، فالشعب يفتقر ويستبعد عندما يسلب اللسان الذي تركه الأجداد، وعندئذ يضيع إلى الأبد».

والقائد الفيتنامي «هوشة مينه» يقول مخاطباً أبناء وطنه «حافظوا على صفاء لغتكم حفاظكم على صفاء عيونكم، حذار من أن تضعوا كلمة أجنبية في مكان بإمكانكم أن تضعوا فيه كلمة فيتنامية».

- وإذا تخلت أمة عن لغتها، أو سمحت للضعف أو العبث أن يشوه صورتها ويهز

حقيقتها فإنها سائرة إلى الاضمحلال والزوال لا محالة، فلا يمكن لأحد أن يتصور أن يكون الإنجليز بغير اللغة الإنجليزية، ولا أن يكون الفرنسيون بغير الفرنسية، ولا يتصور أحد أن يترك الألمان لغتهم للضعف، وليس الأمر مقتصرًا على الإنجليز والفرنسيين والألمان، وإنما هو شأن كل الأمم التي تحترم شخصيتها، وتحرص على مقوماتها، فلا نكاد نعرف أمة ذات شأن وتاريخ تترخص في أمر لغتها بالسماح بإشاعة الضعف فيها أو العبث بها، فضلاً عن إهمالها والتخلي عنها، واصطناع لغة أجنبية أخرى مهما تك هذه اللغة من القوة والانتشار، ومهما كان أهلها من التحضر والتقدم والتفوق».

- وإذا كانت اللغة الإنجليزية تحتاح العالم، وتحتل المرتبة الأولى بين اللغات التي تدرس لغة ثانية في مختلف بلاد العالم، فإننا لا نعرف بلداً واحداً في غير وطننا العربي أقدم أو حتى فُكر، أو عمل على تدريس مواد العلوم والرياضيات بغير لغته القومية من فرنسا إلى الصين واليابان والبرازيل وكوريا وألبانيا ورومانيا والمجر وفيتنام.. الخ.

ولم تحل صعوبة الكتابة في اللغة اليابانية أو الصينية أو الفيتنامية، ولم يحل صغر حجم بعض الدول الأوربية، ولا فقر بعض دول آسيا، ولا موات اللغة العبرية على مدى عشرين قرناً، لم يحل ذلك كله دون أن تكون اللغة القومية هي لغة التدريس في هذه المواضع كافة.

- إن المجتمع الذي لا ينجز نهضة بلاده بلغته الأم لا يتفاعل مع العولمة، ولا يجاري التطور في الاقتصاد والعلوم والفنون ويبقى على هامش الحضارة الإنسانية ولا يسهم فيها، بل أكثر من ذلك يحجب التطور عن لغته ذاتها ما دامت بعيدة عن الاستخدام في المجالات الدينامية المتطورة والمتغيرة باستمرار مثل العلوم والفنون والاقتصاد.

باللغة الأم وحدها يتاح للأمة التقدم العلمي والثقافي والحضاري، وأن طريق التنمية لا يتحقق عبر الثقافات الوافدة، ولا يؤتي ثماره من خلال لغات الآخرين، ولكنه يُثري من تجارب الآخرين بعد ترجمتها إلى اللغة الأم، وهذا ما قامت به الدول المتقدمة والدول الحريصة على ذاتيتها الثقافية وأصالتها كاليابان التي أغنت تجربتها الحضارية من تجارب الآخرين، ولكنها حافظت على لغتها رمزاً لهويتها، ولم تتخل عنها حتى في أوقات هزيمتها واستسلامها.

ومن هنا كان التمسك بلغتنا الأم العربية الفصيحة الموحدة والموحدة على نطاق الساحة القومية قاطرة النجاة وسبيل الأمة للنهوض، ذلك لأن الوعي بالهوية القومية وبلغتها العربية، هو الذي يعصمنا من الانجراف في مهاوي التبعية، ويحمينا من الانقياد المهين وراء العولمة، إذ إن العولمة ليست موجهة نحو المال والاستهلاك فحسب، ولكنها موجهة إلى فكر الإنسان ولغته وثقافته بفضل حيازتها معرفة منظمة ووسائل فاعلة لنشر هذه المعرفة. ومهندسو العولمة يستخدمون اللغة بوصفها وسيلة للاحتراق الحضاري للتأثير على الهوية الثقافية للشعوب، ومن ثم خلخلتها من الداخل للقضاء على الموروث الحضاري الذي هو من أهم مقومات الأمة، وهكذا تتبدى العولمة غزواً ثقافياً متكاملاً موجهاً إلى الفكر والثقافة ومحورهما اللغة، ويتبدى التعريب طريق الأمة للحفاظ على هويتها القومية في مواجهة اجتياح التعريب والعولمة، فضلاً عن أن التعريب متعدد الأبعاد، إذ إن له بعداً دينياً وبعداً قومياً، وبعداً اجتماعياً، وبعداً تربوياً، وبعداً أمن قومي، وبعداً إبداع وابتكار. وللتعريب الأهمية الكبرى في عمليتي الوحدة والتقدم، وهما عمليتان متلازمتان، لأن الأولى هي التحرر من التخلف السياسي: من التجزئة، والأخرى التحرر من التخلف التقني: من التبعية الاقتصادية والتقنية والثقافية.

وحماية اللغة العربية لا تكون على المستوى الثقافي فقط، ولكن على المستوى السياسي والقومي لأن اللغة العربية تدخل في إطار قضايا الأمن القومي العربي، فأعداء الأمة لا يريدون للعرب أن يجمعهم تاريخ واحد ولغة واحدة، ويريدون لأجيالنا أن تتشكل في ظل واقع جديد بلا جذور ولا هوية ولا انتماء.

إن الذي نعانيه على نطاق الساحة القومية في مجال التعريب هو التلكؤ وعدم الحسم في هذا الموضوع الهام والحيوي والمصيري لأمتنا، وكانت الجمهورية العربية السورية أول من وعى هذا الموضوع، فعملت على إنفاذه والبت فيه منذ ما يقرب من قرن كامل تقريباً عندما اعتمدت اللغة الأم «العربية الفصيحة» لغة التدريس في الجامعة إبان الانتداب الفرنسي، ولكم كان موقف السيد «بونور» مدير المعارف العام في المفوضية العليا إبان ذلك الانتداب موضوعياً، إذ إنه خاطب أساتذة الجامعة السورية قائلاً: «لستم مخطئين في اختياركم اللغة العربية للتدريس، بل كونوا واثقين أنكم أحسنتم صنعاً بانتقائها، فإن من يزعمون أن اللغة

العربية غير صالحة للتعبير عن مصطلحات العلم الحاضر هم على خطأ مبين، فالتاريخ يثبت أن لغة الضاد كسائر اللغات الأخرى غنية باشتقاقها، وكافية بكثرة تراكيبها للتعبير عن الأفكار الجديدة والارتباطات الحديثة التي تربط تلك الأفكار. وإن فلاسفة العرب حينما نقلوا في القرن التاسع الميلادي إلى لغتهم رسائل أرسطو طاليس تمكنوا من نقل العلوم إلى لغتهم كما في عهد ابن سينا والغزالي وابن رشد، فما ينكر أحد والحال هذه أن اللغة العربية صالحة لمباشرة اللغات الأخرى وللتعبير عن الأفكار العلمية الحديثة. واعلموا أن اندفاعكم إلى إيجاد مؤسسة علمية كبيرة عربية اللسان هو - على ما أرى - أكبر دليل على حداقتكم فظلوا محافظين على هذه الأداة البديعة التي نحن مدينون لها بكثير من الأعمال الباهرة، وبعده من الأشكال الجميلة التي تجلى بها الفكر البشري».

ويتابع قائلاً: «إني أهنيء العرب وأتمنى ألا يضيعوا هذا الاحترام المقدر للغتهم، لأن من يدافع عن لغته يدافع عن أصله وعن حقه وعن كيانه وعن لحمه ودمه، وإنكم تفهمتم هذا الأمر جيداً».

وإذا كانت سورية قد اتخذت القرار السياسي وطبقته عملياً في مجال التعريب منذ ما يقرب من قرن فإننا ونحن في نهاية العقد الأول من الألفية الثالثة ما نزال نسمع صيحات تنطلق من بعض جامعات الوطن العربي تدعو إلى التريث في تطبيق التعريب من جهة، وصيحات أخرى تدعو إلى التدريس باللغات الأجنبية مكان العربية من جهة أخرى.

وكما كانت سورية سباقة في هذا المجال من قبل فإنها في وقتنا الحاضر سباقة أيضاً في إطلاق مشروع «النهوض باللغة العربية للتوجه نحو مجتمع المعرفة» الذي تقدمت به إلى مؤتمر القمة العربية المنعقد في دمشق عام 2008 وقد أقره المؤتمر واعتمده وقدم الشكر للجمهورية العربية السورية على مبادرتها، ووضعت آليات تنفيذ المشروع في مؤتمر الدوحة عام 2009 وأوصى مؤتمر سرت في الجماهيرية الليبية بمتابعة تنفيذه.

وإننا في ندوتنا هذه نناشد مؤتمر القمة العربية المخصص للثقافة قريباً رسم سياسة لغوية واضحة تتفق ودرسات الدول العربية التي تنص على أن اللغة العربية لغتها الرسمية، مما يرتب عليها تعميم استخدامها في مختلف ميادين الحياة تعليمياً وإعلامياً وإدارة واقتصاداً، ووضع برنامج زمني للانتهاء من التعريب وكفانا تلكؤاً وتسويقاً.

كما ناشد المؤتمر إصدار قوانين لحماية اللغة العربية والالتزام بتطبيق هذه القوانين في جميع مناحي الحياة.

وكما كانت سورية سباقة في إنشاء المجمع العلمي العربي عام 1919 ويعد أبا المجمع اللغوية العربية على نطاق الساحة القومية، كانت سباقة أيضاً في وضع خطة عمل وطنية لتمكين اللغة العربية والحفاظ عليها والاهتمام بإتقانها والارتقاء بها وذلك بقرار جمهوري من السيد الرئيس بشار الأسد، وحبذا لو تعمل الدول العربية كافة على وضع خطة عمل وطنية لتمكين اللغة العربية في كل منها على غرار ما فعلته سورية.

وأخيراً ثمة صوى نستهدى بها في معالجة موضوع التعريب على أنه قاطرة الأمة للنهوض وتمثل هذه الصوى في:

- 1- إصدار القرار السياسي اللازم، وتوفير الإرادة السياسية والحسم والبت في موضوع التعريب.
- 2- إصدار القوانين لحماية اللغة العربية في ضوء سياسة لغوية واضحة الأهداف.
- 3- إتقان اللغة الأجنبية ذلك لأن إتقان اللغة الأجنبية شيء واستخدامها بديلاً عن اللغة العربية شيء آخر، إذ إن في إتقان اللغة الأجنبية دعماً للثقافة ورقياً لها في ميادين العلم. وأما استخدامها بديلاً عن اللغة العربية فعزل للغة العربية ووأد لها. ولنا في تجارب الأمم الأخرى خير دليل، إذ مما ساعد اليابان أن ترقى بصناعتها في خلال نصف قرن أنها وضعت بين أيدي العمال والفنيين أحدث النظريات التطبيقية في الصناعة الأمريكية والأوروبية بلغتهم الأم القومية وهي اليابانية. وروسيا أخذت العلوم الغربية بما فيها المصطلحات وكتبتها بحروفها السلاقية، والصين أخذت علوم الغرب ومصطلحاتهم وكتبتها بحروف صينية.
- 4- تأهيل الأساتذة للتدريس بالعربية في التعليم العام والجامعي على أن يتم التركيز في التعليم الجامعي على:

أ- إتقان اللغة العربية وتعرف ما في التراث العلمي العربي القديم من مصطلحات.

ب- إتقان اللغة الأجنبية.

ج- إتقان مادة التخصص.

5- تشجيع حركة الترجمة وتكليف جامعات الوطن العربي ترجمة أمهات الكتب في مختلف الميادين العلمية تعزيزاً لما يقوم به المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر، وتقديم الدعم المادي اللازم للمركز ليضطلع بدوره في مجال التعريب والترجمة تحقيقاً للأهداف المرسومة له.

6- إنشاء مركز للمصطلحات العلمية في كل جامعة، على أن يتولى اتحاد الجامعات العربية بالتنسيق مع المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر ومع اتحاد المجمع اللغوية العربية إقرار هذه المصطلحات وتوحيدها والعمل على نشرها وسيرورتها.

7- توطين العلم واستنباته عربياً، لأن الشخص الذي يتعلم أحد العلوم بلغته يعمل على نقل ما تعلمه إلى هذه اللغة. أما إذا تعلم علماً ما بلغة أجنبية فإنه ينتقل من محيطه الحضاري والثقافي إلى محيط آخر، ويعد إنتاج نفر من العلماء العرب باللغة الأجنبية غنى وثراء لتلك اللغة الأجنبية. أما إذا كان بالعربية فيعد غنى وثراء للعربية. إن عملية التوطين صعبة ولكنها ليست مستحيلة ولها مردود قومي كبير على المدى البعيد.

وخلاصة القول إن التعريب لا يعني الانغلاق كما يتخيل ذلك بعضهم، وإنما هو انفتاح على الذات والهوية، والتغريب والانغلاق كارتثان حقيقتان.

أما الجمع بين الأصالة والمعاصرة فهو الذي اعتمدته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في مجالات عملها كافة.